الرافعي وأغاريد الأطفال

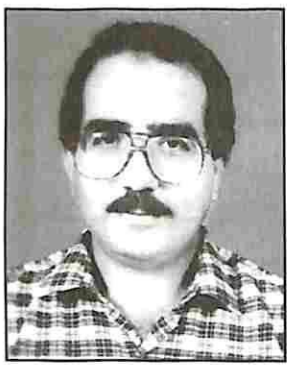

بقلم : أحمد فضل شبلول
مصر

احتوى ديوان «أغاريد الرافعي» الصادر عن وزارة الثقافة والإعلام بالجمهورية العراقية عام ١٩٧٩، جمع وتقديم مصطفى نعمان البدري،على أربعة أبواب، يقتصر الأول منها على ما كان من نظم الرافعي في بناته وبنيه، وكيف تعهدهم بتلك الأغاريد، يغرس فيهم روح التربية القومية، والقيم العالية، والذوق البياني الرفيع .

أما الباب الثاني فهو عبارة عن مجموعة من الأناشيد القومية، بينما احتوى الباب الثالث على الأغاني والموشحات التي حاول الرافعي غير مرة أن يتمها في ديوان « أغاريد الشعب » فيضع فيه لكل طائفة أو جماعة من الشعب أغنية عربية تنطق بخواطرها وتعبر عن أمانيها . في حين احتوى الباب الرابع على بعض المتفرقات .

وبالنظر إلى مجمل نصوص الأقسام الأربعة نجد أن نصيب النصوص المكتوبة إلى أحبائنا الصغار قليلة، فمن بين ثلاثة وثلاثين نصا شعريا - هي كل نصوص الأقسام الأربعة - نستطيع أن نختار عشرة نصوص فحسب، تصلح للطفولة بمراحلها العمرية المختلفة، بل إننا نستطيع أن نستبعد الباب الرابع أو الأخير كله، والذي جاء تحت عنوان «متفرقات» لأنه لا يصلح بنصوصه السبعة عشر للأطفال، وعلى ذلك فإننا نستبعد نصف قصائد الرافعي المنشورة في هذا الديوان تقريبا، ويتبقى لنا الأبواب الثلاثة الأخرى التي بدورها تحتوي على بعض القصائد والأناشيد البعيدة كل البعد عن مستوى الطفولة، وإن كان بها عدد من الأناشيد الوطنية والقصائد الحماسية التي تصلح لسن الطفولة المتأخرة وما بعدها، مثل النشيد الوطني الشهير « اسلمي يا مصر أو نشيد مصر » الذي كان مكتوبا باسم الزعيم الوطني سعد زغلول.

يقول مصطفى نعمان البدري عن هذا النشيد « كان النشيد قد سمي باسم سعد زغلول، الذي رفعته الأحداث إلى صدر الزعامة الوطنية، تشبها بالترك الذين خلعوا على زعيمهم كمال أتاتورك».

ومما يلفت الانتباه أن هذا النشيد قام بتقديمه أحد الأطفال الموهوبين في العزف الموسيقي والغناء ضمن البرنامج التلفزيوني الصباحي «صباح الخير يا مصر - فقرة مسرح التلفزيون» وبعد أن شد هذا الطفل انتباه مقدمة البرنامج والحاضرين وكذلك المشاهدين، وبعد أن أثنت مقدمة البرنامج على أدائه وحفظه لهذا النشيد، سألته أن يقدم شيئا لإخوانه الأطفال الحاضرين والمشاهدين، وكأنها لم تقتنع بأن هذا النشيد يصلح لسن الطفولة التي عليها هذا الطفل، وهو بالفعل كذلك، فهذا النشيد يحمل من

سعد زغلول

المعاني الوطنية السامية والقيم الروحية العالية ما يعلو على إدراك الأطفال ما قبل العاشرة .

ولنذكر القارئ بالمقطع الأول من هذا النشيد الذي لم يقل الرافعي صراحة إنه كتبه للأطفال، ولكن صنف النشيد في هذه المجموعة التي من المفروض أنها موجهة للأطفال .

يقول الرافعي :

اسلمي يا مصر إنني الفدا
ذي يدي إن مدت الدنيا يدا
أبدا لن تستكيني أبدا
إنني أرجو مع اليوم غدا
ومعي قلبي وعزمي للجهاد
ولقلبي أنت بعد الدين دين
لك يا مصر السلامة
وسلاما يا بلادي
إن رمى الدهر سهامه
فاتقيها بفؤادي
واسلمي في كل حين

إن سلسلة الأناشيد القومية التي احتوى عليه الباب الثاني من أغاريد الرافعي يأتي معظمها في مستوى نشيد « اسلمي يا مصر » أو في مستوى أعلى منه من حيث البناء اللغوي، والصور المعنوية أو المجردة أو التركيبة الشعرية بعامة.

يقول الشاعر في نشيد «بلادي»:

بلادي هواها في لساني وفي دمي
يمجدها قلبي ويدعو لها فهمي
ولا خير فيمن لا يحب بلاده
ولا في حليف الحب إن لم يتيَّم
ومن تؤوه دار فيجحد فضلها
يكن حيوانا فوقه كل أعجم

غير أننا نستطيع أن نختار نشيدا واحدا من مجموعة الأناشيد القومية التي احتوت على ستة أناشيد، يصلح لسن الطفولة بالمفهوم الذي نتحدث

عنه هنا، وهو نشيد «حمى النيل» الذي يقول الشاعر في مطلعه :

يا حمى النيل الأمين
لك في قلبي حنين
لك إخلاصي المتين
وهوى الأطفال دين

***

مصر يا خير وطن
مصر يا أم الزمن
لك من غير ثمن
كل عمري الثمين

أما المجموعة الثالثة والتي جاءت تحت عنوان «أغاني الشعب» فقد احتوت على ثلاثة نصوص هي: الفلاح في الصباح، ونشيد الفلاحة، وزجل في تسرية فقير

وبداية نستبعد النص الأخير لأنه كتب بالعامية المصرية في صورة زجلية، ونحن في هذا المقال لا نتعامل إلا مع النصوص المكتوبة بالفصحى للأطفال .

أما بالنسبة لنص «الفلاح في الصباح» فقد كان من الممكن أن يرقى ويطور ليصبح أوبريتا مثل أوبريت «الوسام» عند إبراهيم شعراوي على سبيل المثال.

لقد احتوى نص «الفلاح في الصباح» على الحركة وتعدد الأصوات وتداخلها، يقول الرافعي في مطلع النص:

هات يا محمود لي المحراث
وضع الآن على الثور الحبالا
يا «علي» قم فخذ هذي الحبالا
للسُّباخ قارب الصبح الطلوعا

***

أنت يا «خضرة» قومي فاحلبي
يا «سماحي» قل لـ « زينب » اذهبي
وخذي خبزا ومشًّا لأبي
ثم أرسل «هانما» ترعى القطيعا

عمر الأميري

وهكذا تدب الحركة والحياة في بيت الفلاح المصري، أو على خشبة المسرح إذا تحول النص إلى أوبريت، ولكن يبدو أن فكرة الأوبريت كانت بعيدة عن ذهن الرافعي أثناء كتابة هذا النص، مع أن الفكرة الأساسية للنص – وهي محاولة لرفع الظلم عن الفلاح المصري، وتحسين صورته أمام الناس، وإشعار المجتمع بمدى أهميته – كان الأصلح لها الأوبريت.

أما عن المجموعة الأولى « أغاريد التربية الفصحى» فقد احتوت على سبعة نصوص هي مناغاة، و أرجوحة سامي، وليلة الساهر على الطفل المريض، وكن دائما لمصر، وندى الورد، ونشيد المدرسة، وبنت النيل.

وكما جاءت عن نصوص عمر بهاء الدين الأميري المكتوبة – في معظمها – عن الأطفال، وليست للأطفال، فإننا نجد عند الرافعي هذه الإشكالية أيضا، وبخاصة في مناغاة حيث يتحدث الشاعر عن طفلته وليس إليها، يقول :

طفلتي في العمر مرت
من سنيها باثنتينْ
ليستا فيما غدت تعـ
ـقل إلا ضحكتينْ
جئتها يوما فألقيـ
ـت عليها قبلتينْ

أما في قصيدة « ليلة الساهر على الطفل المريض » فهي لا تتحدث عن الطفولة والأطفال، ولا إليهم، بقدر ما تتحدث عن الشاعر أو الساهر على الطفل المريض ومشاعره أثناء سهره على المريض، ورعايته له :

هنالك النجم الذي من سناه
تضيء في ظلمة قلبي مناه
نضنو سُقام كلما قال : آه
أحسست في قلبي دويّ انفجار

أنظر للطفل فـــلا أصـــبـــر
كـــأن عـــيـني في الذي أنظر
تحـــولت قلبـــا غـــدا يشـــعـــر
فكل لحظ خـــاطر يســـتـــثـــار

وكما قرأنا قصائد عائلية عند عمر بهاء الدين الأميري في ديوانه «رياحين الجنة» فإننا نجد في «أغاريد الرافعي قصائد مماثلة يتحدث فيها عن ابنيه سامي وعبدالرحمن، ولكن يظل الاتجاه العام في أغاريد الرافعي بعيدا عن هذا الاتجاه الذي أكده الأميري في ديوانه .

يخاطب الرافعي ابنه سامي في قصيدة «أرجوحة سامي» فيقول:

أنعم بها أرجوحة يا سامي
تنام فـــيـــهـــا أهنأ المنام
في قطعـــة من روضـــة الأيام
يأوي إليـــهـــا طائر الأحـــلام

أما قصيدته عن عبدالرحمن الرافعي، وهي من القصائد المرقصات (انظر رأي الرافعي في شعر الترقيص في كتابه تاريخ آداب العرب، هامش ص ١٨٧، جـ٣ ....) حيث يقول :

« لو أن سيداتنا الأمهات يتقبلن شعر الترقيص، ويجرين به على ألسنتهن لكبرت اللغة العربية مع أولادهن، ولغرسن بذلك في أذواق الأطفال أصول الوزن والقافية وأصول الأدب معها ... » .

لقد انتهز الشاعر فرصة كتابته لهذه القصيدة / المرقصة ليتحدث فيها إلى أطفال مصر جميعا، وليس لابنه عبدالرحمن فحسب، يقول فيها :

يا ابني ويا ابن مصر
كن دائمـا لمصـرك
أنت ابن مصر وابني
وسعدها وسعدي
أبـنـيـك حـين أبـنـي
تفي لهـا بوعـدي
أبنيك من ضـمـيـري
فلتعطها ضميرك
ولتحـي يا صـغـيـري
حتى ترى صغيرك
جمال أهل عصرك

إن أهم ما يتميز به ديوان الرافعي علو النبرة القـومـيـة، والحس الوطني الصـادق، وهو مـا ينبغي أن يكون موجودا في القصائد التي تكتب للأطفـال، جنبـا إلى جنب مع الموضـوعـات الإنسانية والدينية والاجتماعية الأخرى التي رأيناها في العديد من دواوين الشعراء الآخرين الذين يكتبون للأطفال .

وعموما فقد أدت هذه الأناشيد الحماسية دورها المطلوب في الحركة الوطنية والمطالبة باستقلال مصر، وإجلاء الإنجليز.

وليس معنى هذا أن الرافعي لم يكتب أناشيد وقصائد إسلامية مباشرة لشبابنا وأطفالنا، بل كـان يكتب النصـوص الإسـلامـيـة من واقع حماسته الوطنية، وإخلاصه لأمته العربية أيضا. يقول في نشيد الشباب المحمدي:

يا شباب العالم المحمدي
يعوز الكون شباب مهتدي
فـأروه دينكم ليـقـتـدي
دين عـقل وضـمـيـر ويد
يا شباب العزمات المبرمة
يا رجال المكرمات الملهمة
عرفوا الكون الهدى والمرحمة
علموا الكون العلا والمكرمة
عرفوا الكون النفوس المسلمة

وإذا كنا قد استبعدنا من أغاريد الرافعي للأطفـال المجـمـوعـة الرابعـة «مـتـفـرقـات» بنصوصها السبعة عشر، والتي قلنا عنها إنها لا تصلح لسن الطفولة، فإنه ليس مصادفة أن تأتي بحور هذه المجموعة من البحور التي لا يكثر دورانها حاليا في القصائد المكتوبة ليس للصغار فحسب، ولكن للكبار أيضا، مثل المقتضب، والمديد، والمجتث، ومخلع البسيط،

يقول في قصيدة « في ليلة الأنس» وهي من المقتضب، وهي كما نرى لا تصلح للأطفال:

من أشعة النظر
لأشعة القمر
من سهاد أعينه
لكواكب السهر
من ذبول مقلته
لنضارة الحور

أما عن المجموعات الثلاث الأخرى، فقد استبعدنا من المجموعة الثالثة نصا رجليا، ويبقى نصان جاءا من الرمل والرجز، أما المجموعة الثانية فقد جاءت نصوصها من بحور الطويل والرجز ومجزوئه، والرمل ومجزوئه، والمتقارب.

أما المجموعة الأولى فهي تعد من أقرب المجموعات الأربع إلى روح الطفولة والأطفال، وقد اعتمدت على الرجز ومجزوئه (٣ قصائد)، ومجزوء الرمل (قصيدة واحدة)، ومجزوء الهزج (قصيدة واحدة)، والسريع والخبب (قصيدة واحدة لكل منهما) .

لقد بلغ مجموع المجزوءات في أغاريد الرافعي تسعة مجزوءات مقابل اثنين وعشرين نصا من البحور التامة، وهو الأمر الذي يشي بأن عددا كبيرا من هذه النصوص لا يصلح بالفعل لسن الطفولة والأطفال. ■

أرجوحة سامي

أنعم بها أرجوحة يا سامي ... تنام فيها أهنأ المنامِ
في قطعة من روضة الأيام ... يأوي إليها طائر الأحلامِ
في وكرَي النهار والظلام ... على غصون العمر النوامي
أزهارها ما زلن في الأكمام ... قامت على ذاك الغدير الطامي
في شاطئ المستقبل البسام ... كأنها خواطر الأحلامِ

* * *

ما هزة الثناء في الكرام ... واليد في الأشواق والسلامِ
وصلف المليك في القيام ... وطرب الشاعر للإلهامِ
كما أرى أرجوحة الهمام ... تهتز فخرا بالفتى المقدامِ
بملك البيان والكلام ... وصاحب العرش من الأقلامِ
وقائد الجيش من الأعلام

* * *

يا ساميا وأنت في الأقوام ... من «رافعي» الحكمة في الأنامِ
من عترة الخليفة الإمام ... من «عمر» المعز للإسلامِ
إن جميع السادة العظام ... أهل العلا والهمم الجسامِ
ومن أضاؤوا أفق الدوام ... لم يولدوا أكبر في المقامِ
منك ولا في العقل والأجسام ... فلا تكن أصغرهم يا «سامي»

مصطفى صادق الرافعي